مقدمة

هذا الكتاب فى تفسير الأحلام الذى أقدمه للقراء من أهم الكتب القديمة فى هذا العلم، وهو مرجع من المراجع التى لايستغنى عنها المتخصصون فى تأويل الأحلام من أطباء النفس وغيرهم. ومؤلفه أرطميدورس يتميز بأصالة التفكير والبعد عن التقليد، وهو دائما يقول إن القدماء يفسرون هذا الدليل بكذا وأنا لا ارى ذلك، وينهج منهج التجريب فى التفسير فيقول ولقد امتحنتُ ذلك فوجدت أن المعنى ينصرف لكيت مخالفاً بذلك من سبقوه، وأكثر من ذلك أنه يستشهد بمن يعرف فيقول وأعرف رجلا أتته مثل هذه الرؤيا فكان أن فعل كذا وكذا. ويبدو أن أرطميدورس كان أعلم أهل زمنه فى علم تفسير الأحلام، والسبب الذى من أجله وضع كتابه هذا هو تحديه لمن يسمية بترجمة حنين بن إسحق «قاسيا مكسيمى»، ويصفه أرطيمدورس فيقول إنه «عالم أهل دهرنا»، وفى تفسيره للأرقام وعلاقتها بأعمار الحالم إذا كان مايراه فى منامه من هذه الأرقام، يبدو متضلعا فى اللغة اليونانية، وعالماً بأسرار حروفها، ويقول إن تفسيراته لم يسبقه إليها أحد، وأنه يتحدى أن يستطيع أى من العلماء أن يضيف اليها أو ينقص منها. ويبدو من صدر المقالة الثالثة أن قاسيا مكسيمى هذا هو الذى طلب من أرطميدورس أن يضع كتابه فى تفسير الأحلام ويجمع فيه بين حكمة الأوائل وخبرته الخاصة وموهبتة الفريدة. وقد أوفى أرطميدورس بالمطلوب، وهو يقول «ولقد وضعت هذه المقالات تامة على أقصى ما ينبغى أن توضع وأعطاها العنوان» «مقالات أرطميدورس الذى من مدينة أفاسيس»، ويبدو أن هذا الكتاب ليس هو الكتاب الأول الذى يؤلفه فقد سبق له أن وضع كتبا أخرى، واختار أن ينسب نفسه لهذه المدينة لأنها مدينة معروفة، وأما مدينة دالدانا التى منها أمه

فهى غير معروفه كثيراً لأنها كما يقول لم تنجب الكثير من الرجال المشهورين. وينبغى أن نعلم أن اسم أرطميدورس الإفسى أو الذى من مدينة أفاسيس اليونانية والذى عاش فى القرن الثانى الميلادى لم يكن أول عالم بهذا الاسم يشتهر من هذه المدينة فهناك أرطميدورس إفسى آخر عاش فى القرن الأول قبل الميلادى واشتهر كجغرافى وأخذ عنه الجغرافى الأشهر سترابو، ولعله لذلك يميز أهل السيرة بين الاثنين بأن يلقبوا أرطميدورس الذى يعنينا أمره باسم أرطميدورس الدالدانى Artemidorus Daldianus وإن كان هو نفسه يكره ذلك ويؤثر أن ينسب إلى أفاسيس.

وأرطميدورس لم يكن تخصصه فى تفسير الأحلام إذ أن هذا العلم هو جانب من الجوانب الكثيرة التى حذق علومها فهو طبيب وجغرافى وحكيم وعالم نفس وطبيب نفسانى ولغوى وأنثروبولوجى وفيلسوف وعالم بالأساطير والحكايات الشعبية وعادات مختلف الطبقات الشعبية، ولكتابه تعبير الرؤيا Oneirocritica هو جماع هذه العلوم والمعارف كلها. ولذلك لم يكن غريبا أن يتجه العرب فى عصر الترجمة، وهم يختارون أن يترجموا لأساطين الفلسفة والطب والصيدلة والكيمياء، لأن تكون ترجمتهم لهذا السفر البالغ الأهمية على نفس المستوى الذى ترجموا به كتب أرسطو وأفلاطون، وقد نبهت ترجمتهم للكتاب الأوروبيين إلى الأهمية التى له فى العالم القديم فترجموه بدورهم إلى لغاتهم، ولا يكاد يوجد مؤلف فى الإحلام إلا وينوه بأرطميدورس وعلمة وجهده، ولقد نبه إليه فرويد وإن لم يكن قد قرأه هو نفسه وذلك ربما لأن الكتاب فى زمنه لم يكن قد تُرجم إلى الألمانية. وعلى أى الأحوال فإن الترجمة العربية التى توفر عليها حُنَيْن بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٢ هـ أو ٨٧٣م لابد أن تحظى منا بما هى جديرة به من اهتمام وعناية. ولقد آليت على نفسى أن أحصل على مخطوطتها من استنبول، وأن أنهض بمراجعتها وتحقيق نصوصها. وحُنَيْن

الذى نقلها من اليونانية إلى العربية منذ ما يزيد على الألف سنة هو العالم الجليل المشهور بترجماته والذى يدين له العرب ولابنه إسحق بن حنين بالكثير، بل إن الأوروبيين يدينون لها أيضا بهذا الكثير. وحنين لقبه أبوزيد، وكان أبوه صيدلانيا من أهل الحيرة بالعراق، وارتحل إلى البصرة ليتلقى العلم بها، وتتلمذ على أشهر علمائها فى العربية وهو الخليل بن أحمد، وانتقل إلى بغداد فأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره، ودرس اليونانية والسريانية والفارسية، واتقن هذه اللغات حتى قيل عن إتقانه اليونانية أنه كان يحفظ إلياذة هوميروس، وقيل إن ترجماته عن اليونانية زادت عن المائة مصنف، ولما ذاع أمره عينه الخليفة المأمون رئيساً لديوان الترجمة وطلب إليه أن يلحق بهذا الديوان نوابغ المترجمين وأن يتوفروا على العلوم والآداب العالمية فينقلوها إلى العربية، وينصرف معنى العالمية وقتها إلى علوم وآداب الإغريق، وقد فعل حنين ذلك فترجم تاريخ العالم والأنبياء والملوك والأمم حتى وقته، والفصول الأبقراطية، وسلامان وأبسال وكتباً أخرى فى الأسنان وحفظها، والضوء وحقيقته، ومقالات فى الطب عن جالينوس، وله التشريح الكبير عن جالينوس، والمدخل إلى علم الروحانيات. وهذا الكتاب الذى نحن بصدده ينتمى إلى مجموعة الكتب التى تنتمى إلى علم الروحانيات الذى هو علم النفس بمعنى آخر، وإذن فهذا الكتاب هو من مكتبة علم النفس والتحليل النفسى. واتبع حنين الطريقة التى يبدو أنها كانت سائدة فى زمنه فى الترجمة، فكانوا يترجمون الأسماء كما يطوعها لسانهم العربى للنطق، وتصرف حنين أحيانا كثيرة فأورد ماليس له نظير عند العرب بأسماء أخرى، كأن يقول عن الممثلين أنهم اللاعبون، أو أن يورد أسماء آلهة الإغريق على أنها أسماء الملائكة عندهم، وقد يترجم أسماء الحيوانات والطيور المعروفة فإذا لم يجد لها ترجمة يوردها كما هى حتى وإن جهلها القارئ ولم يدر ما الذى يقصده بها. وكثيرا ما كان يختصر العبارة أو يضم

العبارتين والثلاث معا فى عبارة واحدة عربية، وقد يضحى أحيانا بالمعنى فى نظير أن يلتزم الترجمة الحرفية. ومع توالى استنساخ الكتاب سقطت بعض الحروف وأخطأ النسّاخون فى نقل البعض، والنتيجة أن المخطوطة العربية جاءت وبها غلطات نحوية وصرفية، وعبارات ليس لها معنى، وعبارات ساقطة، فكان لزاما على من يتصدى لنشر هذا الكتاب أن يضطلع بتصحيح ذلك كله. وأحيانا ما كان يخالجنى شك أن حنيناً هو مترجم هذا النص لكثرة ما فيه من أخطاء. ولقد زكّى فىّ هذا الشك أن الدكتور عبدالرحمن بدوى وهو يحقق كتاب الخطابة لأرسطو لم يجد أن مستوى لغة المخطوطة يناسب شهرة إسحق بن حنين وذيوع صيت الأب وابنه فى الترجمة حتى لقد وصف ذلك فقال إنه قد وجد الترجمة سقيمة للأسف، وأنها انحرفت عن معانى النص وأساءت فهمه، وأن المترجم عبرّ عما فهمه أو بالأحرى أساء فهمه بألفاظ واصطلاحات غريبة يعسر على المرء أن يفهم السر فى التجائه إليها. ويستنتج الدكتور بدوى لهذه الأسباب أن الترجمة لابد ترجع إلى مرحلة أقدم. وإذا كان ذلك هو ما خلُص إليه الدكتور بدوى بإزاء نص ينسب إلى إسحق بن حنين المتوفى ٢٩٨ هـ أو ٩١٠م، والذى تتلمذ على أبيه فى اللغات والترجمة وعاصر خلفاء كانوا يشجعون على الترجمة حتى لقد كانوا يزنون الكتاب المترجم بالذهب مكافأة للمترجِم (بكسر الجيم)، وإذا كان ذلك نصيب مخطوطة الخطابة من نقد الدكتور بدوى لعالم جليل مثل إسحق بن حنين وهو الذى نقل كليات أرسطو وشرح مقالاته فى علم النفس التى ألّفها ثامسطيوس، ألايشجعنا ذلك على الشك أيضا فى نسبة المخطوطة إلى حنين بهذه الحالة التى هى عليها، وألا يمكن ان تكون من ترجمة آخرين أقدم منه، وخاصة أننانميل إلى الاعتقاد بأن محمد بن سيرين مؤلف تفسير الأحلام قد اطلّع على الترجمة ووعى ما بها وأخذ عنها وحاكاها؟ وسواء كان حنين هو المترجم أم آخرون فإن أرطميدورس فى تأليفه

لهذا النص قد كان أوحد زمانه فيه، واتبع فى وضعه طريقة لم يسبقه إليها أحد فى المؤلفات عن الأحلام، فقد قسّم الكتاب إلى ثلاث مقالات أو فصول، وكل مقالة أو فصل إلى أبواب، كأن يقول باب فى الموت، أو باب فى الزواج، أو فى زوجة الأب وزوج الأم، ثم يتناول فى كل باب معنى الحلم بأى من هذه الموضوعات تبعا لسن الحالم وجنسه وطبقته وحالته الصحية والنفسية والمزاجية. وهذه الطريقة التى لم يسبقه إليها أحد كما يقول هى نفسها التى اتبعها ابن سيرين المتوفى سنة ١١٠هـ أو ٧٢٩ م فى رائعته ذائعة الصيت «تفسير الأحلام»، أى أن الترجمة لابد أن ترجع إلى عصر قبل عصر حنين، وأن يكون ابن سيرين قد اطلعّ عليها، أو أنه كانت هناك تراجم أخرى لهذا النص قد سبقت ترجمة حنين وعرف بها ابن سيرين. والذى يزكّى فينا هذا الاحتمال وجود عبارات واحدة عند ابن سيرين وأرطميدورس، وموضوعات واحدة وتفسيرات واحدة. ولربما يكون حنين بن إسحق قد اطلع أيضا على هذه التراجم الأقدم، بدليل أنه وابنه قد تصدوا لترجمة نصوص فلسفية وطبية كانت لها ترجمات فعلا بين أيدى العرب إلا أنَها لم تشتهر اشتهار ترجمات حنين وابنه بالنظر إلى المركز الاجتماعى الذى كانا يشغلانه فى دولة العباسيين وما قد يضفيه ذلك على أعمالهما من احترام بين جموع المثقفين العرب. ولابد أن عبدالغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣هـ أو ١٧٣١م قد اطلع أيضا على ترجمة كتاب تعبير الرؤيا فقد وضع هو الآخر رائعة من روائع تفسير الأحلام هى الثانية فى هذا العلم بعد كتاب ابن سيرين يعتز بها العرب كثيرا، واعتبر النابلسى بسببها من أوائل من كتبوا فى علم تفسير الأحلام بالمنهج العلمى. ولقد ميز فرويد فى تأريخه لحركه التأليف فى تفسير الأحلام بين المؤلفات غير العلمية والمؤلفات العلمية التى ترداالأحلام لمؤثرات موضوعية ولا تقول بأنها من الوحى الإلهى أو من وحى الشيطان. ولم يذكر فرويد النابلسى للأسف وإن كان

قد ذكر ابن سيرين فى هامش المراجع. والنابلسى كان شاعرا ومتصوفا وله المصنفات الكثيرة، وكتابه تعطير الأنام فى تعبير المنام من عيون أدب تفسير الأحلام، وكتابه يأخذ فيه بالمنهج العلمى الخاص ويقسم فيه الأحلام إلى أحلام تتحدث عن الماضى وأخرى تستشف المستقبل، ويقول إن تعبير الرؤيا علم من أشرف علوم الأوائل. ونظريته فى الأحلام فيها الجانب النفسى حيث يقول إن النائم قد يرى فى منامه ما يغلب عليه من الطبائع، فإن غلبت عليه السوداء رأى الأحداث مجللة بالسواد وفيها الأهوال والأفزاع، وإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصابيح والدم، وإنه غلب عليه البلغم رأى البياض والمياه والأنهار، والأمواج، وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعازف والمزامير. ويطلق النابلسى على هذه الأحلام صراحة اسم الأحلام النفسية، وتلك لعمرى نظرة علمية متقدمة جدا يسبق بها النابلسى فرويد والكثير من الأوروبيين، ولعلنا ننبه إلى أن نظرية فرويد العلمية فى الأحلام تقوم على القول بأن الأشياء فى الأحلام تأتى رموزا، وأن الحلم له محتوى باطن وظاهر، وأن الأحلام يمكن أن توجه سلوك صاحبها فى اليقظة بإقباله على ما يرى أنه فى صالحه مما رآه فى الحلم، وإدباره عن ما يجد أنه ليس فى مصلحته، وتجنبه لبعض الأشخاص فى الحياة أو إقباله على بعضهم الآخر بإيحاءات من أحلامه وما يراه تفسيراً لها. وأرطميدورس وابن سيرين والنابلسى يقولون كذلك بالرمزية وبميكانيزمات الأحلام التى منها القلب والتفسير بالعكس. والفرق بين العلماء الثلاثة وفرويد أن أرطميدورس يذكر أنواع الأحلام بصراحة ولكنه لايشير إلى ميكانيزمات الحلم إلا تلميحاً، وأما ابن سيرين والنابلسى فإنهما يقدمان لكتابيهما بمقدمة هى رائعة من الروائع العلمية وفيها منهج التصنيف والتبويب والتعديد والتجريب، ويذكران شروط الأحلام والحالمين والمعبرين للرؤيا، وأما فرويد فهو يفصل القول فى ذلك تفصيلا. وإننى لأرى لذلك أن الكتب الثلاثة لأرطميدورس

وابن سيرين والنابلسى هى من أهم المراجع فى علم تفسير الأحلام ولاغنى عنها للدارس، وهى أيضا مقدمة ضرورية للتخصص من بعد فى كتاب فرويد الأعظم «تفسير الأحلام». وقد استعنت أنا نفسى بالكتب الأربعة فى تكوين نظريتى فى تفسير الأحلام وإن كنت قد زدت عليها بعض الشئ إلا أنها زيادة لاتباعد بينى وبينهم كثيرا. ولنلاحظ جيدا أن كل أنواع التفسير للأحلام بدءاً من التفسير الفسيولوجى وانتهاءً بالتفسير النفسى قد تحدّث فيها أرطميدورس، وأفاض ابن سيرين والنابلس فى ذكرها، وتشعب بها وعددها تفصيلا وإسهابا فرويد. وقد ضمّنت كتابى «التحليل النفسى للأحلام» طرفاً من نظريات كل واحد من هؤلاء ودراسة مستوعبة لكتبهم فى الأحلام. ولعله لهذا السبب كان اهتمامى البالغ بأرطميدورس وتحفته، وتمنياتى أن أحقق كتابَى إبن سيرين والنابلس وأخلّص النصين مما بهما من ترهات وأعاجيب منسوبة إلى الشيخين الجليلين دون سند، وأملى أن أوجز كتاب فرويد وأقدمه للقارئ المتخصص وغير المتخصص سهلا ميسور الفهم. ولعلى أجد يوما ذلك الناشر الذى يشجع عندى هذا الميل.

ولقد نبهت فى تحقيقى لنص أرطميدورس إلى ما قمت بتعديله وتصحيحه للأصل بوضعه بين أقواس كما فعلت فى تحقيقى لنصّ التعريفات للجرجانى، وسمحت لنفسى أن أحذف غير المفهوم شديد الالتباس والذى اعتبرته من الحواشى مما يمكن الاستغناء عنه. وقد يبدو تصحيحى وإقامتى للمعوج من العبارات كالإضافة إلى النص وهو ليس كذلك. ولم يكن هدفى أن أقدم نصا لحنين بن إسحق بقدر ما كان هدفى أن أخلص نص أرطميدورس مما به من شوائب وأخطاء. والله أسأل أن أكون قد وفقت إلى ما سعيت إليه.

عبدالمنعم الحفنى